من إضافات الزمخشري في أسلوب العطف

د. إبراهيم منّاد(*)

١ - واو العطف ودلالتها على الكمال:

أورد الزمخشري في كشّافه معنًى آخرَ للواو العاطفة، وهو دلالتها على الكمال، ولم نجد، فيما وقع بين أيدينا من كتب التراث النحويّ، من أقرّ بهذا المعنى ممّن سبقوه، ولا من اعتمده ممّن لحقوه.

قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾ [البقرة: ١ - ٥] ففي نظر الزمخشري وردت الواو في ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ ﴾ لتكون جامعةً بين مجموعة من الصفات فيحصل الكمال في إيرادها، وله في ذلك تفسير مطوّل لا بأس من ذكره؛ يقول:« فإن قلت ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ ﴾ أَهُمْ غيرُ الأوّلين أم همُ الأوّلون؟ وإنّما وسّط العاطف كما يوسّط بين الصفات في قوله: (هو الشجاع والجواد)، وفي قوله:

(*) باحث في اللغة والتراث من الجزائر.

إلى الملـكِ القـرمِ وابـنِ الهـمامِ وليـثِ الكتيبـةِ في المـزدحمْ[١]

قلت: يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلاّم، وأضرابه من الذين آمنوا، فاشتمل إيمانهم على كلّ وحي أُنزل من عند الله، وأيقنوا بالآخرة؛ إيقانًا زال معه ما كانوا عليه من أنّه لا يدخل الجنّة إلاّ من كان هودًا أو نصارى، وأنّ النار لن تمسّهم إلاّ أيّامًا معدودات، واجتماعهم على الإقرار...فيكون المعطوف غير المعطوف عليه، ويحتمل أن يراد وصف الأوّلين، ووسّط العاطف على معنى أنّهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه، فإن قلت: فإن أُريد بهؤلاء غير أولئك، فهل يدخلون في جملة المتّقين أم لا؟ قلت: إن عطفتهم على ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ دخلوا وكانت صفة التقوى مشتملةً على الزمرتين من مؤمني أهل الكتاب وغيرهم، وإن عطفتهم على (المتّقين) لم يدخلوا، وكأنّه قيل: هدى للمتّقين، وهدى للّذين يؤمنون بما أنزل إليك»، فظاهر قوله هو دلالة الواو على الكمال في الصفات في أحد الوجوه التي ذكرها. هذا، وإن كان ما ورد هاهنا لا يعدو أن يكون ربطًا بواو النسق لمجموعة من الصفات المتوالية، التي تقع على معطوف عليه واحد. وقد رفض أبو حيّان أن تكون الواو دالّة على الكمال في معرض ردّه لتفسير آخر للزمخشري كما سنرى بعد قليل.

وقال القرطبي:« قيل: المراد مؤمنو أهل الكتاب، كعبد الله بن سلاّم وفيه نزلت، ونزلت الأولى في مؤمني العرب، وقيل: الآيتان جميعًا في المؤمنين، وعليه

(١) ينظر: الكشّاف، ١/ ١٥٥، والإنصاف، ٢/ ٩، والبحر، ١/ ٣٢٦، والتبيان في البيان، ص ١٠٣، والخزانة، ١/ ٤٥١.

فإعراب ﴿الّذين﴾ خفض على العطف، ويصحّ أن يكون رفعًا على الاستئناف، أي: وهم الذين، ومن جعلها في صنفين؛ فإعراب الذين رفع بالابتداء، وخبره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾، ويحتمل الخفض عطفًا»(٢). ونفهم من هذا أنّ الوجوه في التفسير تلاقت بين العالمين، ولكنّها اختلفت وتباينت في طريقة العرض وفي دلالة الواو على العطف بإضافة الزمخشري لمعنى الكمال.

وهذا المعنى لا يمكنه إلاّ أن يكون جمعًا بين المعطوفين. أمّا إن تصوّرنا ذلك، فقد يقع على الكثير من آي الذكر الحكيم ممّا يجعل دلالة الكمال مطّردة في اللغة العربية، وهذا ما لم يثبته حتّى الزمخشري نفسه، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣]، وكقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ – ٢٤]، فهذه كلّها صفات معطوفة في الآية الأولى، ووردت بدون رابط عطفيّ في الآية الثانية، وليس في نظرنا ما يدلّ على الكمال في الحرف العاطف في هذه الصفات، لأنّ دلالة الكمال متعلّقة بالألفاظ الدالّة على الصفات لا على الحرف العاطف بينها.

(٢) الجامع، ١/ ١٧٥. وينظر: الطبري، ١/ ١٠٥، والمحرّر، ١/ ١٤٨-١٤٩، والبحر، ١/ ٦٧، والتفسير الكبير، ١/ ٣٦.

وقال تعالى: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧]، تحدّث الزمخشري عن هذه الواو هاهنا بكلام خاصّ جالبٍ لإمعان النظر فقال:« والواو المتوسّطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كلّ واحدة منها، وقد مرّ الكلام في ذلك، وخصّ الأسحار لأنّهم كانوا يقدّمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده»(٣). أمّا أبو حيّان فله رأيٌ آخرُ وهو قوله:« لمّا ذكر الإيمان بالقول، أخبر بالوصف الدالّ على حسب النفس على ما هو شاقّ عليها من التكاليف، فصبروا على أداء الطاعة، وعن اجتناب المحارم، ثمّ بالوصف الدالّ على مطابقة الاعتقاد في القلب للّفظ الناطق به اللسان، فهم صادقون فيما أخبروا به من قولهم: (ربّنا إنّنا آمنا) وفي جميع ما يُخْبِرون، وقال الزمخشري:(...).ولا نعلم العطف في الصفة بالواو يدلّ على الكمال»(٤). فهذا معنًى جديد لا قِبَلَ لأهل النحو به، فهو مرفوض مردود على الزمخشري.

٢- ثمّ ومعنى الاستبعاد:

والمقصود بالاستبعاد كما هو جليّ في تحليلات الزمخشري المنافاة بين أمرين؛ المعطوف والمعطوف عليه(٥). وتحصل هذه الدلالة إذا كان الكلام الوارد بعد ثمّ مستبعد الوقوع بالنظر إلى ما سبقها، فالمعطوف عليه بما يمثّله من أفعال وأحداث يكون مهيّأً لعدم حصول الحكم الداخل في المعطوف.

وحريّ بنا أن نشير هاهنا إلى أنّنا لم نعثر على هذا المعنى للرابط ثمّ في كتب

(٣) الكشّاف، ١/ ٥٣٦.

(٤) البحر، ٣/ ٥٧. وينظر: المحرّر، ٣/ ٤٩-٥٠.

(٥) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص ٢٣٨.

النحاة المتقدّمين. ويبدو أنّه من ابتكار الزمخشري؛ لأنّه يتردّد في كشّافه بكثرة إلى درجة الاطّراد، وكيف لا يكون ذلك ونحن نعلم أنّ الرجل كان مولعًا بالاحتكام إلى مبادئ المعتزلة وعلى رأسها العقل والعدل، إضافةً إلى تزوّده واطّلاعه بأسرار اللغة العربية من البيان والمعاني.

ومن المواطن التي وردت فيها ثمّ دالة على الاستبعاد في الكشّاف، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾ [البقرة: ٧٢ – ٧٤]، قال الزمخشري:« (ثمّ قست) استبعاد القسوة من بعدما ذكر ممّا يوجب لين القلوب ورقّتها ونحوه»(٦)، ومعناه أنّ القلوب قد صلبت في رفض الحقّ، ولم تذهب لآيات الله المعجزة في إحيائه للموتى، ولذا صارت القلوب أشدّ قسوةً من الحجارة، وهذا الأمر في حقيقته لدى الزمخشري مستبعد بعد ما كانت الأفعال والأحداث السابقة لـ«ثمّ» في إبراز قدرة الله جلّ وعلا تنبئ بعدم بقاء قلوب هؤلاء قاسيةً وصلبة إثر رؤيتهم للحقّ، ومع ذلك بقوا على عهدهم السابق.

وردّ عليه أبو حيّان ذلك بقوله:«...وهو يذكر عنه أنّ العطف بثمّ يقتضي

(٦) الكشّاف، ١/ ٢٨٦. وينظر: المحرّر، ١/ ٣٥٣، والبحر، ١/ ٤٣٢، والقرطبي، ١/ ٤٣٠.

الاستبعاد، ولذلك قيل عنه في قوله:﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾(٧)، وهذا الاستبعاد لا يُستفاد من العطف بـ «ثمّ»، وإنّما يستفاد من مجيء هذه الجمل ووقوعها بعدما تقدّم ممّا لا يقتضي وقوعها، ولأنّ صدور هذا الخارق العظيم الخارج عن مقدار البشر، فيه من الاعتبارات والعظات ما يقتضي لين القلوب والإنابة إلى الله تعالى، والتسليم لأقضيته، فصدر منهم غير ذلك من غلظ القلوب وعدم انتفاعها بما شاهدت والتعنّت والتكذيب»(٨).

وقال تعالى:﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥]، فمعنى ثمّ وما يليها:« استبعاد لما أسند إليهم من القتل والإجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم، والمعنى ثمّ أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون، يعني أنّكم قوم آخرون غير أولئك المقرّين تنزيلًا، لتغيُّر الصفة ومنزلة الذات، كما تقول رجعت بغير الوجه الذي خرجت به»(٩). فهذا معنى جديد كان فضل السبق في إحداثه يعود إلى الزمخشري.

(٧) قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١].

(٨) البحر، ١/ ٤٢٢.

(٩) الكشّاف، ١/ ٢٩١-٢٩٢. وينظر: المحرّر ١/ ٣٧٨-٣٧٩، والبحر ١/ ٤٦٦، والقرطبي ٢/ ٢٠.

وإن كنّا نقبله فلا نقبل أن تكون «ثمّ» وحدها دالّة على الاستبعاد، وإنّما يكون هذا المعنى مستوحًى من السياق العامّ لعناصر العطف وأركانه.

وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: ٢٣] يرى الزمخشري أنّ ذلك« استبعاد لتولّيهم بعد علمهم بأنّ الرجوع إلى كتاب الله واجب، ونسب التولّي إلى فريق منهم لا إلى جميع المبعدين، لأنّ منهم من أسلم ولم يتولّ»(١٠).

ويواصل الزمخشري طريقه في تثبيت هذا المعنى وجعله قائمًا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام: ١ – ٢]؛ فيقول:« فإن قلت علام عطف قوله ﴿ثمّ الذين كفروا بربّهم يعدلون﴾، قلت: إمّا على قوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على معنى أنّ الله حقيق بالحمد على ما خلق لأنّه ما خلقه إلاّ نعمةً ثمّ الذين كفروا به يعدلون، فيكفرون نعمته، وإمّا على قوله ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على معنى أنّه خلق ما خلق ممّا لا يقدر عليه أحد سواه، ثمّ هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. فإن قلت: فما معنى ثمّ قلت استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، وكذلك ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد لأن يمتروا فيه بعدما ثبت أنّه مُحيِيهم ومُميتهم وباعثهم»(١١)

(١٠) المصدر نفسه، ١/ ٥٤١. وينظر: البحر، ٣/ ٨١، والقرطبي، ٦/ ٤٨-٤٩.

(١١) الكشّاف، ٢/ ٣٢١. وينظر: البرهان، ٤/ ٢٣٥.

ومنهم من يرى فيما رواه الزركشي عن ابن برّي، أنّ ثمّ وردت هنا للدّلالة على تفاوت رتبة الخلق والجعل من رتبة العدل، مع السكوت عن وصف العادلين.(١٢)

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود: ١١٣]، في هذه الآية أورد الزمخشري في تحليله لدلالة ثمّ على الاستبعاد ما يتّصل بالفكر الاعتزالي؛ قال:« ﴿ثمّ لا تُنصرون﴾: ثمّ لا ينصركم هو؛ لأنّه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم. فإن قلت: فما معنى «ثمّ»؟ قلت: معناها الاستبعاد؛ لأنّ النصرة من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له»(١٣)، أي إنّه سبحانه أبقى عليهم وأوجب عليهم العذاب، وهذا ليس من رأي أهل السنّة والجماعة في شيء، ولذلك قال أبو حيّان عن هاته العبارات هنا أنّها من ألفاظ المعتزلة.(١٤)

وقال جلّ ثناؤه: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النحل: ٨٣]، فالزمخشري يرى أنّ ثمّ هاهنا للاستبعاد؛ لأنّ الإنكار الذي حصل من قبلهم يُعدّ أمرًا مستبعدًا بعد حصول المعرفة؛ وذلك أنّ معرفة النعمة توجب الاعتراف بها لا الإنكار.(١٥)

---

(١٢) البرهان، ٤/ ٢٣٤.

(١٣) الكشّاف، ٣/ ٢٦٧.

(١٤) البحر، ٦/ ٢٢١. وينظر: المحرّر، ٧/ ٤١٥، والقرطبي، ٩/ ٩٥.

(١٥) الكشّاف، ٣/ ٤٦٠، وفيه:« (ثمّ ينكرونها) بعبادتهم غير المنعم بها، وقولهم: هي من الله، ولكنّها بشفاعة آلهتنا، وقيل: إنكارهم قولهم ورثناها من آبائنا. وقيل: قولهم لولا=

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢]، فثمّ في قوله ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ للاستبعاد، ومعنى ذلك في نظر الزمخشري «أنّ الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة ثمّ لم تنتهزها، استبعادًا لتركه الانتهاز؛ ومنه ثمّ في بيت الحماسة:(١٦)

وَلاَ يَكْشِفُ الغُمَّاءَ إِلاَّ ابْنُ حُرَّةٍ يَرَى غَمَرَاتِ المَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطّلع على شدّتها»(١٧)، وكما نرى لا يجد الزمخشري هاهنا حرجًا في التباهي بانتمائه إلى المذهب الاعتزالي، وذلك حين قال (مستبعد في العقل والعدل) وهذا من مقولات المعتزلة.

وقال تعالى: ﴿يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٨]، قال صاحب الكشاف:« فإن قلت: ما معنى ثمّ في قوله: (ثمّ يصرّ مستكبرًا)؟ قلت: كمعناه في قول القائل: **(يرى غمرات الموت ثمّ يزورها)**،

=فلان ما أصبت كذا لبعض نعم الله. وإنّما لا يجوز التكلّم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنّها من الله، وأنّه أجراها على يد فلان وجعله سببا في نيلها». وينظر: المحرّر، ٨/ ٤٨٨، والبحر، ٦/ ٥٧٨-٥٧٩، والقرطبي، ١٠/ ١٤٧.

(١٦) البيت لجعفر بن عبلة الحارثي، وهو من شواهد: الكشّاف، ٢/ ٤٠٧، ٥/ ٣٧-٤٨٢، والبحر، ٨/ ٤٤٠، وديوان الحماسة لأبي تمّام، ١/ ٢٦، وشرح الحماسة لأبي تمّام، ١/ ٢٠٩.

(١٧) الكشّاف، ٥/ ٣٧-٣٨. وينظر: البحر، ٤/ ٤٤٠.

وذلك أنّ غمرات الموت حقيقة بأن ينجو راكبها بنفسه ويطلب الفرار عنها، وأمّا زيارتها والإقدام على مزاولتها فأمر مستبعد، فمعنى ثمّ: الإيذان بأنّ فعل المُقْدِم عليها بعدما رآها وعاينها شيء يستبعد في العادات والطباع، وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحقّ، ومَنْ تُلِيَت عليه وسمعها، كان مستبعدًا في العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها»[١٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج: ١٤]، فمعنى ثمّ هاهنا للاستبعاد وهو استبعاد الإنجاء، لأنّ (ينجيه)« عطف على يفتدي، أي: يودّ لو يفتدي، ثمّ ينجيه الافتداء أو من في الأرض،...تمنّى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده وبذلهم في فداء نفسه، ثمّ ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه».[١٩]

وقال جلّ وعلا: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾ [المدثر: ١١ – ١٥]، فقوله تعالى (ثمّ يطمع) «استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه، يعني أنّه لا مزيد على ما أوتي سعةً وكثرةً، وقيل: إنّه كان يقول: إن كان محمد صادقًا فما خُلقت الجنّة إلاّ لي».[٢٠]

٣- دلالة ثمّ على التراخي والتفاوت بين الرتبتين لا في الوقت:

وهذه من الدلالات التي استحدثها الزمخشري في كشّافه إلى درجة جَعْلِها مطّردةً في باب العطف، وهي أيضًا من المعاني التي لم يسبقه إلى إثباتها أحد؛ قال أبو

(١٨) المصدر نفسه، ٥/ ٤٨٢.

(١٩) الكشّاف، ٦/ ٢٠٧. وينظر: البحر، ١٠/ ٢٧٤.

(٢٠) المصدر نفسه، ٦/ ٢٥٥.

حيّان:« ولا نعلم أحدًا سبقه إلى إثبات هذا المعنى لـ ثمّ»[٢١]. وسنورد الآن مواطنَ متعدّدةً لثمّ في القرآن الكريم تؤدّي هذه الدلالة بحسب ما ارتآه صاحب الكشّاف.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٩]، قال الزمخشري: «فإن قلت: فكيف موقع «ثمّ» قلت: نحو موقعها في قولك: أحسن إلى الناس ثمّ لا تحسن إلى غير كريم تأتي بـ«ثمّ» لتفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم والإحسان إلى غيره، وبُعْدِ ما بينهما، فكذلك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة من عرفات قال ثمّ أفيضوا لتفاوت ما بين الإفاضتين، وأنّ أحدهما صواب والثانية خطأ، وقيل: ثمّ أفيضوا من حيث أفاض الناس[٢٢]».[٢٣]

ويرى ابن عطيّة أنّ ثمّ هاهنا ليست للترتيب، وإنّما هي لعطف جملة كلام على جملة هي منها متقطّعة[٢٤]. وعليه تكون ثمّ هاهنا كالواو في إفادتها العطف دون ترتيب، في تقدير: وأفيضوا من حيث أفاض الناس.

وأورد أبو حيّان أنّ منهم من يحمل ثمّ في هذا الموضع على أصلها في إفادتها الترتيب، ويحتاج ذلك إلى تقديم وتأخير في الكلام؛ فيكون ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ ﴾

(٢١) البحر، ٢/ ٣٠٢.

(٢٢) جاء في تفسير المراغي:« فالمغني عليكم أن تفيضوا مع الناس من مكان واحد تحقيقًا للمساواة وتركًا للتفاخر وعدم الامتياز لأحد عن أحد، وذلك من أهم مقاصد الدين». ٢/ ١٠٣.

(٢٣) الكشّاف، ١/ ٤١٢.

(٢٤) المحرّر، ٢/ ١٧٧.

معطوفًا على ﴿واتّقون يا أولي الألباب﴾؛ أي: ثمّ أفيضوا من حيث أفاض الناس، واستغفروا الله.(٢٥)

كما نجده يردّ على زعم الزمخشري في إفادة «ثمّ» التفاوت بين الرتبتين، يقول: «قال الزمخشري: (فإن قلت:...) وليست الآية كالمثال الذي مثّله، وحاصل ما ذكر: أنّ ثمّ تسلب الترتيب، وأنّها لها معنى غيره سمّاه بالتفاوت والبعد لما بعدها ممّا قبلها، ولم يجز في الآية أيضًا ذكر الإفاضة الخطأ، فيكون: ثمّ في قوله (ثمّ أفيضوا) جاءت لبعد ما بين الإفاضتين وتفاوتهما، ولا نعلم أحدًا سبقه إلى إثبات هذا المعنى لثمّ».(٢٦) ويبدو أن تشبّع الزمخشري بأفكار المعتزلة ساعده على التأويل وإعمال العقل للوصول إلى نظرات جديدة، صارت فيما بعد ثابتةً أو لِنَقُل متداولةً.

لكنّ أبا حيّان الذي عهدناه وألفناه متتبّعًا للزمخشري في كشّافه، نجده لا يتقبّل معظم آراء صاحب الكشّاف، إمّا لانتمائه إلى أهل الاعتزال، وإمّا لعدم ورود ما قاله في دراسات السلف،مثلما هو الحال بالنسبة لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾ [البقرة: ٢٦٢]، يقول أبو حيّان:«وعطف بثمّ الّتي تقتضي المهلة، لأنّ من أنفق في سبيل الله ظاهرًا لا يحصل منه غالبًا المنّ والأذى. فإذا كانت بنيّة غير وجه الله تعالى، لا يمنّ ولا يؤذي على

(٢٥) البحر، ٢/ ٣٠١. وينظر: الرازي، ٥/ ١٩٧.

(٢٦) البحر، ٢/ ٣٠١-٣٠٢.

الفور، فلذلك دخلت ثمّ، مراعاة للغالب، وإنّ حكم المنّ والأذى المتعقبين للإنفاق والمقارنين له حكم المتأخّرين، وقال الزمخشري: (ومعنى ثمّ إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المنّ والأذى، وأنّ تركهما خير من نفس الإنفاق، كما جعل الاستقامة على الإيمان خيرًا من الدخول فيه بقوله:«ثمّ استقاموا»[٢٧])[٢٨].وقد تكرّر للزمخشري ادّعاء هذا المعنى لثمّ، ولا أعلم له في ذلك سلفًا»[٢٩]. ويزداد إصرار الزمخشري على إثبات هذا المعنى إلى درجة الإطالة في التحليل، وإيراد نصوص طويلة لإبراز حجّة ما يدّعيه، من ذلك ما نجده في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [آل عمران: ١١١]، حيث نورد نصًّا مُطَوَّلاً نراه جديرًا بالنقل في هذا الموضع؛ يقول:« فإن قلت: هلاّ جزم المعطوف في قوله ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾: قلت: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنّه قيل: ثمّ أخبركم أنّهم لا ينصرون فإن قلت: أي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى قلت: لو جزم لكان نفي النصر مقيّدًا بمقاتلتهم كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي

(٢٧) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾[فصلت: ٣٠] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣].

(٢٨) ينظر: الكشّاف، ١/ ٤٩٧.

(٢٩) البحر، ٢/ ٦٦٠. وينظر: المحرّر، ٢/ ٤٢٨، والقرطبي، ٥/ ٢٧٩-٢٨٠.

النصر وعدًا مطلقًا، كأنّه قال: ثمّ شأنهم وقصّتهم التي أخبركم عنها وأبشّركم بها بعد التولية أنّهم مخذولون مُنْتَفٍ عنهم النصر والقّوة لا ينهضون بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر من حال بني قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر فإن قلت: فما الذي عطف عليه هذا الخبر، قلت: جملة الشرط والجزاء كأنّه قيل: أخبركم أنّهم إن يقاتلوكم ينهزموا ثمّ أخبركم أنّهم لا ينصرون. فإن قلت: فما معنى التراخي في ثمّ، قلت: التراخي في الرتبة لأنّ الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتولّيهم الأدبار».[٣٠]

والظاهر أنّ أغلب النحاة والمفسّرين على أنّ «ثمّ» في ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ للاستئناف.[٣١] وجاء في المحرّر الوجيز ما نصّه:« قال بعضهم: إنّ ثمّ في قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، استئناف إخبار بأنّهم لا ينصرون - يريد أعداءه- ولم يشرك في الجزاء فيجزم لأنّه ليس مترتّبًا على الشرط، بل التولية مترتّبة على القتال، والنصر منفي عنهم أبدًا، وثمّ هنا ليست للتراخي في الزمان، وإنّما هي للتراخي في الإخبار بانتفاء النصر عنهم مطلقًا»[٣٢]. وعند أبي حيّان ثمّ هنا للتراخي في الإخبار وليست للمهلة في الزمان؛« فالإخبار بتولّيهم في القتال

(٣٠) الكشّاف، ١/ ٦٠٩-٦١٠.

(٣١) ينظر: معاني الفرّاء، ١/ ٢٢٩، وإعراب النحّاس، ١/ ٤٠٠، والقرطبي، ٦/ ١٦٥؛وفيه: مستأنف فلذلك يثبت فيه النون». فورود النون دليل على عدم الجزم ولذا هو مرفوع على الابتداء.

(٣٢) المحرّر، ٣/ ٢٦٩(الهامش٣).

وخذلانهم والظفر بهم أبهج وأسرّ للنفس، ثمّ أخبر بعد ذلك بانتفاء النصر عنهم مطلقًا»(٣٣). وبذلك يكون ردّ كلّ المزاعم التي قيلت هاهنا، يتقدّمها زعم الزمخشري، في كون معنى ثمّ هو الاستئناف أو الدلالة على التراخي.

ومن هذا التفاوت والتباين الذي تؤدّيه ثمّ، قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، فقد رأى الزمخشري أن التراخي في قوله (ثمّ انظر) للدلالة على ما بين العجبَين؛ إذ بيّن لهم الآيات بيانًا عجيبًا، ولكن إعراضهم وإفكهم عنه أعجب(٣٤). ولا ندري لماذا عبّر الزمخشري هنا بعبارة «العجبين»؛ ربّما لأنّ الحال تقتضي العجب من تبيين الآيات وتوضيحها، بل من إعراض من بُيِّنَت له، وقد يكون صاحب الكشّاف مصيبًا في ذلك، لأنّ من أدرك الشيء وتبيّن له لزمه التقيّد به.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، يورد الزمخشري هنا فرقًا في التركيب العطفي بين الفاء

(٣٣) البحر، ٣/ ٣٠٤، وفيه أيضا: «...ثمّ للتراخي، فلذلك لم تصلح في جواب الشرط، والمعطوف على الجواب كالجواب، وما ذهب إليه هذا الذاهب خطأ، لأنّ ما زعم أنّه لا يجوز قد جاء في أفصح كلام، قال تعالى: ﴿...وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ محمد: ٣٨ ، فجزم المعطوف بثمّ على جواب الشرط».

(٣٤) الكشّاف، ٢/ ٢٧٧، وينظر: المحرّر، ٤/ ٥٣١-٥٣٢، والبحر، ٤/ ٣٣٣.

وثمّ، فيقول:« فإن قلت: أي فرق بين قوله (فانظروا) وبين قوله ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ قلت: جعل النظر مسبّبًا عن السير في قوله (فانظروا)، فكأنّه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين، وأمّا قوله ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ فمعناه: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبّه على ذلك بـ«ثمّ»؛ لتباعد ما بين الواجب والمباح»[٣٥]، فالفرق واضح في الدلالة بين الفاء وثمّ، فالحرف الأوّل مفيد للتسبيب، والحرف الثاني للتراخي، إلاّ أنّ أبا حيّان ردّ زعم الزمخشري هاهنا في إفادة الفاء معنى السببية، فهي عنده تفيد التعقيب لا غير.[٣٦]

وقال المولى تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، أي: فصلت بالوعد والوعيد والثواب والعقاب[٣٧].وكالعادة معنى ثمّ في هذا الموضع ليس التراخي في الوقت والزمان ولكن في الذكر، يقول الزمخشري:« فإن قلت: ما معنى ثمّ قلت: ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال، كما تقول هي محكمة أحسن الإحكام مفصّلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل كريم الفعل»[٣٨]، فشتّان بين الحالتين في الذكر، وليس الزمان والوقت أساسًا في المهلة والتراخي بينهما. وذلك كما في قوله تعالى:﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا

(٣٥) الكشّاف، ٢/ ٣٢٧.

(٣٦) البحر، ٤/ ٤٤٦. وينظر: المحرّر، ٥/ ١٣٥.

(٣٧) القرطبي، ٩/ ٥. وينظر: المحرّر، ٧/ ٢٣٤، والبحر، ٦/ ١٢٠.

(٣٨) الكشّاف، ٣/ ١٨١.

﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل: ٨٤]؛ إذ إنّ معنى ثمّ في هذا التركيب العطفي هو أنّهم يمنّون بعد شهادة الأنبياء بما هو أعظم، وهو منعهم الكلام، فلا يرخّص لهم الاعتذار، ولا يتمكّنون من تقديم الحجّة والإدلاء بها(٣٩).والتباين واضح بين الرتبتين، والتفاوت الحاصل بينهما. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٩]، فالتباعد والتفاوت والتباين الوارد في هذه الآية يعرضه الزمخشري بقوله:« ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك، وهم عمار وأصحابه، ومعنى: إن ربّك لهم، أنه لهم لا عليهم، بمعنى أنه وليهم وناصرهم لا عدوهم وخاذلهم، كما يكون الملك للرجل لا عليه، فيكون محميًّا منفوعًا غير مضرور»(٤٠).

وقال تعالى:﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه: ٨٢]، فقد جعل الزمخشري ثمّ دالّةً على تباين المنزلتين وتفاوتهما، ومثّل لذلك بقولهم:(جاءني زيدٌ ثمّ عمرٌو)، لتباين الوقتين، ومنه تكون منزلة الاستقامة على الخير مباينةً لمنزلة الخير نفسه كونها أفضل وأعلى منها(٤١).ومعنى قوله (ثمّ

(٣٩) المصدر نفسه، ٣/ ٤٦١. وينظر: المحرّر، ٨/ ٤٨٨، والبحر، ٦/ ٥٧٩، والقرطبي، ١٠/ ١٤٧.

(٤٠) الكشّاف، ٣/ ٤٧٧. وينظر: المحرّر، ٨/ ٥٢٣، والقرطبي، ١٠/ ١٧٤.

(٤١) الكشّاف، ٤/ ١٠١.

اهتدى)[٤٢] أي لزم الهداية وأدامها إلى الموافاة على الإسلام، أو يكون المعنى بإزالة الشكّ في إيمانه، وقيل أيضًا ثمّ استقام، أي إنّ الاهتداء هو الاستقامة وهو ما ذهب إليه الزمخشري[٤٣]، ومثّل له بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، ومثل الزركشي في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[المائدة: ٩٣]، وذلك للكشف على أنّ معنى﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ دام على الهداية.[٤٤]

ونجد للزركشي ردًّا صريحًا على ما أورده الزمخشري فيما يخصّ هذه الآية وآيات أُخَر[٤٥] في إفادة ثمّ لمعنى التباعد والتباين والتفاوت في الرتبة، يقول:«واعلم أنّه بهذا التقدير يندفع الاعتراض بأنّ ثمّ قد تخرج عن الترتيب والمهلة، وتصير كالواو؛ لأنّه إنّما يتمّ على أنّها تقتضي الترتيب الزماني لزومًا، أمّا إذا قلنا: إنّها ترد لقصد التفاوت والتراخي عن الزمان لم يحتجُ إلى الانفصال عن

(٤٢) ينظر: البحر، ٧/ ٣٦٥، والقرطبي/ ١١/ ١٤٦.

(٤٣) الكشّاف، ٤/ ١٠١

(٤٤) البرهان، ٤/ ٢٣٤.

(٤٥) ينظر الآيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ [المدثر ١٨-٢٠]، ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ [البلد: ١٧].

شيء وممّا ذكر من هذه الآيات الشريفة،لا أن تقول: إنّ ثمّ قد تكون بمعنى الواو. والحاصل أنّها للتراخي في الزمان، وهو المُعَبَّر عنه بالمهلة، وتكون للتّباين في الصّفات وغيرها من غير قصد مهلة زمانية، بل ليعلم موقع ما يعطف بها وحاله، وأنّه لو انفرد لكان كافيًا فيما قصد فيه، ولم يُقصد في هذا ترتيب زماني، بل تعظيم الحال فيما عطف عليه وتوقّعه، وتحريك النفوس لاعتباره»(٤٦).

وقال تعالى:﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج:٣٣]، فثمّ هاهنا لتراخي معطوفها في الوقت في نظر أبي حيّان والقرطبي(٤٧)، لكنّ الزمخشري يرى غير ذلك بعدما أثبت لها نفس المعنى؛ إذ يقول:« وثمّ للتّراخي في الوقت، فاستُعيرت للتراخي في الأحوال، والمعنى أنّ لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم، وإنّما يعتدّ الله بالمنافع الدينية، قال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وأعظم هذه المنافع وأبعدها شوطا في النفع ... ».(٤٨)

وقد يتكرّر ورود «ثمّ» في تركيب واحد وجملة واحدة مثل بقيّة روابط

(٤٦) البرهان، ٤/ ٢٣٥-٢٣٦.

(٤٧) ينظر: البحر، ٧/ ٥٠٧، والقرطبي، ١٢/ ٥٤.

(٤٨) الكشّاف، ٤/ ٨٤. وقال الزجّاج:« فإنّ ثمّ للعطف على تراخ، وقد عطفت في الآية (النحر) الذي هو بآخرة، أو (الطواف) الذي هو الخاتمة، على الانتفاع بما يقام في المناسك في الدين، أو بمنافع البدن والهدايا في الدنيا على القولين». إعراب الزجاج، ١/ ١٠٥.

العطف، وهنا أيضًا يذهب الزمخشري إلى إفادتها التفاوت في الرتبة ما بين الحالات المختلفة، باختلاف الأزمنة، وذلك مثل ما ينصّ عليه في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٥ – ٤٦]بقوله:« فإن قلت: ثمّ في هذين الموضعين كيف موقعها؟ قلت: موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة: كأن الثاني أعظم من الأوّل، والثالث أعظم منهما، تشبيها لتباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت»(٤٩).

وقال جلّ ثناؤه: ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الصافات:٦٧ -٦٨]، علّق على مواقع ورود ثمّ بقوله:« فإن قلت: ما معنى حرف التراخي في قوله ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا ﴾ وفي قوله ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ ﴾ قلت: في الأوّل وجهان، أحدهما أنّهم يملؤون من البطون من شجر الزقوم وهو حارّ يحرق بطونهم ويعطشهم فلا يُسقون إلاّ بعد مليّ تعذيبًا بذلك العطش، ثمّ يُسقون ما هو أحرّ وهو الشراب المشوب بالحميم، والثاني أنّه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة ثمّ ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع، فجاء بـ «ثمّ» للدلالة على تراخي حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفته لصفته في الزيادة عليه، ومعنى الثاني أنّهم يُذهب بهم عن مقارّهم ومنازلهم في الجحيم وهي الدركات التي أُسكنوها إلى شجرة الزقوم فيأكلون إلى أن يمتلئوا ويسقون بعد ذلك ثمّ يرجعون إلى دركاتهم، ومعنى التراخي في ذلك بيّن»(٥٠)، ونحن نرى مدى إصرار

(٤٩) الكشّاف، ٤/ ٣٥٤. وينظر: المحرّر، ١١/ ٤٥، والبحر، ٨/ ١١٤.

(٥٠) المصدر نفسه، ٥/ ٢١٤.

الزمخشري على إثبات هذا المعنى لثمّ في آي الذكر الحكيم، ولعّل ذلك كلّه يرجع في الأصل إلى التشبّع بمبادئ المعتزلة وتعويلهم على العقل بالدرجة الأولى.

ويبدو ذلك جليًّا أيضًا من تفسيره لقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٦] حيث يقول:« فإن قلت: ما وجه قوله (ثمّ جعل منها زوجها) وما يعطيه من معنى التراخي قلت: هما آيتان من جملة الآيات التي عَدَّدها دالاًّ على وحدانيته وقدرته: تشعيب هذا الخلق الفائت للحصر من نفس آدم وخلق حواء من قُصَيْرَاه، إلاّ أنّ إحداهما جعلها الله عادةً مستمرَّة والأخرى لم تجر بها العادة ولم تُخْلَق أنثى غير حواء من قصيري رجل، فكانت أدخل في كونها آية وأجلب لعجب السامع، فعطفها بـ «ثمّ» على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزيّة، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية، فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود، وقيل ثمّ متعلّق بمعنى واحدة كأنّه قيل: خلقكم من نفس[٥١] وُحّدت ثمّ شفعها الله بزوج، وقيل: أخرج ذرّية آدم من ظهره كالذرّ ثمّ خلق بعد ذلك حواء»[٥٢].

فمع أنّ الظاهر هاهنا أنّ ثمّ لترتيب الأخبار لا لترتيب الزمان بمعنى

(٥١) جاء في إعراب الزجّاج، ١/ ١٠٠:« أي ثم خلقكم منها، قيل: معناها خلقكم من نفس وحدها جعل الزوج منها بعد التوحيد، فأفادت واحدة هذا المعنى». وينظر: معاني النحّاس، ٦/ ١٥٣.

(٥٢) الكشّاف، ٥/ ٢٨٩-٢٩٠.

المهلة[٥٣]،فإنّ الزمخشري كعادته ذهب إلى أنّ ثمّ جاءت هنا للتفاوت بين الرتبتين والحالتين المخبر عنهما.

ويواصل الزمخشري مضيّه نحو تأكيد هذا المعنى بتحليلات طويلة، ثمّ إنّها دقيقة جدًّا يصعب في بعض الأحيان إدراكها كليًّا، مثلما يعرضه لنا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥] بقوله:« فإن قلت ما معنى ثمّ هاهنا وهي للتراخي، وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارنًا للإيمان لأنّه وُصف فيه، لما بيّنت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها التيقّن وانتقاء الريب، قلت: الجواب على طريقتين: أحدهما أنّ من وُجد منه الإيمان ربّما اعترضه الشيطان أو بعض المضلّين بعد ثلج الصدر فشكّكه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه أو نظرهم نظرًا غير سديد يسقط به على الشكّ ثمّ يستمرّ على ذلك راكبًا رأسه لا يطلب له مخرجًا، فوُصِفَ المؤمنون حقًّا بالبعد عن هذه الموبقات، ونظيره قوله (ثمّ استقاموا)، والثاني أنّ الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أُفرِدَ بالذكر بعد تقدّم الإيمان تنبيهًا على مكانه، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارًا باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضًّا جديدًا»[٥٤]. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾ [نوح: ٨ - ٩]، فثمّ هنا في نظره لمعنى تباعد الأحوال وتفاوتها والدلالة على التباين دون اعتبار الزمان، لأنّ الجهر أغلظ من السرّ، والجمع

(٥٣) معاني النحّاس، ٦/ ١٥٢.

(٥٤) الكشّاف، ٥/ ٥٨٨.

بينهما أكبر من كون كلّ واحد منفردًا.(٥٥)

ومن المفسّرين المتأخّرين من تأثّر بما أورده الزمخشري في كشّافه على غرار ابن عاشور، قال صاحب الكشّاف في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ [المدثر: ١٨ – ٢٣]، ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [النبأ: ٤ – ٥]، ففي ثمّ دلالة على أنّ الوعيد الثاني أبلغ وأشدّ من الوعيد المتقدّم(٥٦). وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى: ١٣]، يرى الزمخشري أنّ ثمّ للتراخي في الرتبة والتباين في الشدة؛ لأنّ« الترجيح بين الحياة والموت أفظع من الصّلي، فهو متراخٍ عنه في مراتب الشدّة، والمعنى: لا يموت فيستريح ولا يحيا حياةً تنفعه»(٥٧).

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١٧]، فثمّ هاهنا لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لا في الزمان والوقت، بل التباين والتفاوت أولى؛ لأنّ الإيمان مقدّم على ما سواه من الأمور، ولا تكون الأعمال صالحةً إلاّ به.(٥٨)

ورفضت عائشة عبد الرحمان هذا التأويل للحرف «ثمّ» في هذه الآية وما ذهب إليه الكثير من مفسّري القرآن الكريم في جعل الإيمان منفصلاً عمّا قبله، وارتأينا أن

(٥٥) الكشّاف، ٦/ ٢١٤.

(٥٦) الكشّاف، ٦/ ٢٩٤.

(٥٧) الكشّاف، ٦/ ٣٥٩.

(٥٨) المصدر نفسه، ٦/ ٣٧٩. وينظر: تفسير ابن عاشور، ٣٠/ ٣١٨.

نورد النصّ الكامل الذي أوردته للتوضيح؛ قالت:«وقف المفسّرون طويلاً عند عطف الإيمان على فكّ رقبة، بحرف «ثمّ» الذي يفيد الترتيب مع التراخي، فتأوّلوه بما يخرج به عن صريح سياقه وظاهر معناه، ليفيد إبعاد الإيمان عمّا قبله، والتراخي في الرتبة لا في الترتيب، قالوا: إنّ ثمّ جيء بها هنا قصدًا إلى إبعاد الإيمان عن فكّ رقبة أو إطعام يتيم أو مسكين، كيلا يكون معها في رتبة واحدة...وبعيدًا عن كلّ هذه التأويلات، نأخذ حرف «ثمّ» على صريح معناه في السياق، فنفهم أنّ القرآن إذ يرتّب مراحل اقتحام العقبة الجدير بالإنسان المميّز أن يكابده، يضع العتق والتراحم خطوتين سابقتين على الإيمان لازمتين له، مُقرِّرًا بذلك أنّ الإيمان لا يُرجى فيمن يتسلّط على عباد الله بالاسترقاق، أو بتحجّر قلبه فينطق في يوم ذي مسغبة، جوعُ يتيم ذي مقربة أو مسكين ذي متربة، فلا موضع لإيمان صادق، من مثل هذا الجاحد القاسي، يستعبد الخلق ويغفل عن حقّ اليتيم القريب أو المسكين، في يوم مجاعة»(٥٩).

وقال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [التكاثر: ٣ - ٤]، جاءت ثمّ للدلالة على أنّ الإنذار الثاني أبلغ من الأوّل وأشدّ، فثمّة تفاوت وتباين وتباعد؛« كما تقول للمنصوح: أقول لك ثمّ أقول لك: لا تفعل، والمعنى: سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدّامكم من هول لقاء الله، وإنّ هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة عليكم»(٦٠).

وبهذا نكون قد فرغنا من عرض استجدّ من زيادات في باب العطف عند الزمخشري في كشّافه. والله نسأل التوفيق والسداد.

(٥٩) الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، ص ١٨٩-١٩٠.

(٦٠) الكشّاف، ٦/ ٤٢٤. وينظر: إعراب الزجّاج، ١/ ١٠٤-١٠٥.

المصادر والمراجع

١- **الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق**، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، بمصر، ١٩٧١م.

٢- **إعراب القرآن لأبي جعفر النحّاس** (ت٣٣٨هـ)، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ط٢ (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).

٣- **إعراب القرآن المنسوب للزجّاج** (ت ٣١١هـ) تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٣ (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م).

٤- **الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري**، تقديم حسن حمد، بإشراف د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١٨هـ-١٩٩٨م).

٥- **البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي**، تحقيق الشيخ زهير زاهد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ((١٤١٢هـ-١٩٩٢م).

٦- **البرهان في علوم القرآن للزركشي (ت ٧٩٤هـ)**، تحقيق جماعة من العلماء، دار المعرفة، بيروت، ط٢ (١٤١٥هـ-١٩٩٤م).

٧- **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية**، د. محمّد حسين أبو موسى، دار الفكر العربي، دت.

٨- **التبيان في البيان للطيبي (ت٧٤٣هـ)**، تحقيق د. توفيق الفيل وعبد اللطيف لطف الله، مطبوعات جامعة الكويت، ط١ (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م).

٩- **تفسير الفخر الرازي، فضيلة الشيخ خليل محيي الدين الميس**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (١٤١٤هـ- ١٩٩٣م).

١٠- **تفسير المراغي**، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط٣ (١٣٨٢هـ- ١٩٦٢م).

١١- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** لأبي جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت- لبنان، (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م).

١٢- **الجامع لأحكام القرآن** لأبي عبد الله القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تقديم خليل محيي الدين الميس، مراجعة صدقي محمّد جميل، تعليق عرفان العشاء، دار الفكر للطباعة والنشر

والتوزيع، بيروت (١٤١٥هـ- ١٩٩٥م).
١٣- **الجنى الداني في حروف المعاني** للحسن بن القاسم المرادي، تحقيق د. فخر الدين قباوة وأ. محمّد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١ (١٤١٣هـ- ١٩٩٢م).
١٤- **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، لعبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) تحقيق وشرح د. محمّد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة/ دار الرفاعي بالرياض، ط١ (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م).
١٥- **ديوان الحماسة لأبي تمّام مختصر من شرح العلاّمة التبريزي**، علّق عليه وراجعه محمّد عبد المنعم خفاجي، مصر (١٣٧٤هـ- ١٩٥٥م).
١٦- **شرح أبيات مغنى اللبيب**، لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق عبد العزيز ربّاح وأحمد يوسف دقّاق، دار الثقافة العربية، دمشق، ط١ (١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م).
١٧- **شرح حماسة أبي تمّام للأعلم الشنتمرّي**، تحقيق د. علي حمودان، دار الفكر، بيروت، ط١ (١٤١٣هـ- ١٩٩٢م).
١٨- **الفاخر في شرح جمل عبد القاهر**، لمحمّد بن أبي الفتح البعلي (ت٧٠٩هـ) تحقيق د. ممدوح محمّد خسارة، السلسلة التراثية، الكويت، ط١ (١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م).
١٩- **الكشّاف للزمخشري** تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمّد معوض، شارك في تحقيقه أ.د. فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١ (١٤١٨هـ- ١٩٨٨م).
٢٠- **المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، لأبي محمّد عبد الحقّ عطيّة الأندلسي، تحقيق وتعليق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري وآخرين، الدوحة- قطر، ط١ (١٤٠١هـ- ١٩٨١م).
٢١- **معاني القرآن، للفراء (ت ٢٠٧هـ)**، عالم الكتب، بيروت، ط٣ (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م).
٢٢- **معاني القرآن الكريم، للنحّاس**، تحقيق الشيخ محمّد علي الصابوني، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة، ط١ (١٤١٠هـ- ١٩٨٩م).